

لغة قريش في الدرس النحوي
جدلية الأصل القرآني والأصل السماعي
The Language of Quraysh in Grammar Lessons
The Dialectic of the Quranic Origin and the Auditory Origin
سامية مازوزي¹

¹ جامعة الجزائر 1 كلية العلوم الإسلامية مخبر الشريعة (الجزائر)، s.mazouzi@univ-alger.dz

تاريخ الاستلام: 2025/08/29 تاريخ القبول: 2025/11/23 تاريخ النشر: 2026/01/23

ملخص:

تتناول هذه الورقة البحثية لغة قريش وموقعها في الدرس النحوي من حيث مكانتها اللسانية بين اللغات العربية المجاورة لها في شبه جزيرة العرب، ومكانتها الاجتماعية باعتبار تكوينها القائم على عملية الاصطفاء والانتقاء التي مارسها أهلها على مر الزمن، حتى وسمت بأفصح لغات العرب. إضافة إلى اختيارها لغة لآخر الكتب السماوية. كل هذه السمات حري أن تقدمها على مثيلاتها في الاستدلال السماعي لدى النحويين، ولكن جمهور النحاة سلكوا طرقاً أخرى، تشتت معها في عرْفهم هوية هذه اللغة وحقيقتها، فمنهم من عدها لسان القبائل العدنانية قاطبة، ومنهم من عدها لغة الحجاز دون غيرهم من العرب، كما اختلفوا حول حقيقة أنها اللغة التي نزل بها القرآن الكريم. ومع المكانة العلمية والاجتماعية التي تمتعت بها، تساءلنا عن دورها في الدرس النحوي وحظها في أصل السماع لدى رجالات النحو وأعلامه، مسلطين الضوء على تاريخها الزماني والمكاني، وعلاقتها بالقرآن كلسان يمثل القوم الذين أنزل إليهم، ثم رأي نحوي البصرة والكوفة في حجيتها اللغوية.

كلمات مفتاحية: لغة قريش، القرآن الكريم، النحو، السماع النحوي، الشاهد النحوي.

Abstract: This research paper examines the language of Quraysh, and its position in grammatical studies, both in terms of its linguistic status among the neighboring Arabic languages of the Arabian Peninsula, and its social standing, leading to being recognized as the most eloquent of the Arab languages. In addition, it was chosen as the language of Quran the last divine book.

With its scientific, social and religious status, we wondered about its role in grammatical study, shedding light on its history, considering the opinion of the grammarians of Basra and Kufa regarding its linguistic authority.

Keywords: Quraysh language- Qur'an-Arabic Grammar- Grammar listening

*المؤلف المرسل: سامية مازوزي

1. مقدمة

الحمد لله الذي خلق الإنسان وبرا فيه اللسان، وهداه السبيل وعلمه البيان، والصلاة والسلام على النبي العدنان الذي بعث بالحق والقرآن مبشراً أهل الإيمان وداعياً إلى البر والإحسان، وبعد:

فقد عدت اللغة العربية أقدم اللغات التي حافظت على خصائصها من ألفاظ وتراكيب ونحو وصرف وأدب، ورغم أن تاريخ نشأتها يلفه الغموض والإشكال، ذلك أن أقدم ما يعرف عنها يمتد إلى القرن الثالث الميلادي فقط (إبراهيم أنيس، 2003، ص 31)، إلا أنها لا تزال تحتفظ بقوتها وعنفوانها اللذين طمست بهما لغات أقدم منها نشأة وتاريخا كال يونانية والعبرية وغيرها، بل هي من أغنى اللغات وأثرها من حيث الألفاظ والتراكيب والأساليب. لغة انطلقت من قلب صحراء الحجاز المجذبة لتمام الزمان والمكان خصوبة، حملت الحق دعوة وكتابا وأثمرته في ربوع الدنيا رسالة وحضارة، فحفظ الكتاب اللسان وحفظت الحضارة البيان.

سنتناول في هذا البحث إشكالية لغة قريش ومكانتها في الدرس النحوي، كمرجع للفصح والمسموع من لغة العرب معتمدة في القياس والتعديد، وكيف نظر إليها مختلف النحاة من بصريين وكوفيين، خاصة وأنها تتمتع بشرعية قرآنية ونبوية، فالقرآن نزل بلغة قريش والنبى ﷺ الذي أوتي جوامع الكلم، قرشي ولسانه قرشي. يهدف هذا البحث إلى تحليل موقف النحويين من لغة قريش كأصل مسموع فصيح نزل به القرآن، عبر البحث في أصول لغة قريش وأسباب سيادتها على لغات الحجاز الأخرى التي كان حظها من النص القرآني أقل من حظها، والكشف عن مظاهر سلطتها السياسية التي عززت سلطتها الاجتماعية واللغوية في الحجاز وخارجه. وإذا بحثنا في الآثار المنقولة التي تتحدث عن لغة القرآن وأصل العربية الفصحى نجدها تضعنا أمام الفرضيات الآتية:

- أن القرآن نزل بلغة قريش لسان قوم النبي ﷺ.

- أن القرآن تضمن لهجات عربية أخرى غير لهجة قريش.

- أن لغة قريش تطورت من خلال انتقائها الأجود من لغات العرب الذين كانوا يفدون عليها.

- أن الصحابة كانوا يختارون قراءة القرآن بلهجة قريش فيما استشكل عليهم من ألفاظه.

من خلال ما سبق نجد أنفسنا أمام الحاجة المنهجية الملحة لدراسة عوامل سيادة قريش كقبيلة بين العرب، وسيادة لسانها بين ألسنتهم. كما تشمل الدراسة تحليل خصائص لهجة قريش وحقيقة نزول القرآن بها. ثم ننتقل إلى معالجة حظها في المسموع الفصح المعتمد في التعديد للنحو العربي ورأي النحاة في ذلك.

2. تاريخ قريش سيادة سياسية ولغوية

1.2 تاريخ السيادة السياسية

قريش هي ولد فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان (ابن حزم الأندلسي، 1962، ص 464). تنتسب باتفاق النسابين إلى نبي الله إسماعيل بن النبي إبراهيم عليهما السلام، جاء في صحيح مسلم: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشاً من كنانة واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم»، قال ابن القيم في زاد المعاد في ما بعد عدنان من النسب: «إلى ها هنا معلوم الصحة متفق عليه بين النسابين ولا خلاف فيه البتة وما فوق عدنان مختلف فيه، ولا خلاف بينهم أن عدنان من ولد إسماعيل -عليه السلام» (ابن القيم، 1996، 70/1).

وأقوى ما قيل في تسمية قريش بهذا الاسم "إن اسم قريش مشتق من كلمة "التقريش" أي: التجمع؛ لأن قصي بن كلاب جمع بطون كنانة، وناهض بهم خزاعة، وانتزع منها حكم مكة وسدانة الكعبة، فسمي لذلك مجمعا" (ابن سعد، 1990 م، 59/1).

وقيل أيضا نسبة إلى: قريش ابن بدر بن يخلد بن النضر، وكان دليل بني كنانة في تجارتهم؛ فكان يقال: "قدمت غير قريش؛" فسميت قريش بذلك. (مصعب الزبيري، د ت، ص 12)

كان قصي أول رؤساء مكة من قريش، وكانت قريش في عهده قسمين: قريش البطاح ممن جمعهم قصي في الأبطح من مكة، وقريش الظواهر الذين لم يدخلهم قصي الأبطح، فسكنوا أطراف مكة خارج الشعب. (انظر: المسعودي، 1409هـ، 32/2، 59/2).

وكان لجوار الكعبة وخدمتها للوافدين عليها الأثر الأكبر في إعلاء مكانة قريش بين قبائل العرب في جزيرة العرب وما جاورها. ذلك لأنها كانت تعد لأن تكون منطلقاً لأشرف رسالة تخاطب الناس كافة. فجمعت شرف النسب وشرف المكان وأضافت إليهما شرف اللسان. وبالتالي فإن ظروفها تهيأت لقريش كي تجعل منها وحدة سياسية ودينية وثقافية تسيدت العرب في وقت قريب من ظهور الإسلام فيها، وكأنها كانت تعد لاستقبال أمر جليل سيكون من بعده توحيد الأمة لساناً ورسالة.

2.2 السيادة اللغوية

انقسمت اللغة العربية إلى لهجات عدة في أنحاء الجزيرة العربية، بسبب اتساع الرقعة الجغرافية واختلاف الطبيعة فيها من مكان لآخر، وقد أطلق القدماء على هذه اللهجات اسم اللغات، منهم ابن جني الذي عقد باباً في كتابه الخصائص عنوانه: (اختلاف لغات العرب وكلها حجة) (ابن جني، د.ت، 12/2)، وكذلك قول السيوطي: "لغة قريش" (السيوطي، 1989م، ص 414)، يريد به لهجتها التي تنتمي إلى اللغة العربية، والمراد باللغات اللهجات. هي لغة قريش، لغة أهل الحجاز، لغة النبي ﷺ، اللغة العالية، لغة كنانة (غوث، 1997، ص 19 وما بعدها)، كيفما وجدتها في كتب التراث. وكانت العرب على تشعب بطونها تتكلم العربية مع اختلاف في الألسنة بين قبائلها، اختلاف قد يتقلص فيتشابه لسان قبيلة مع أخرى، وقد يتسع حتى تظن أن لساناً منها خرج عن إطار العربية التي تجمعهم. لذا فإن بروز لغة مشتركة كلغة قريش كان نتيجة الاحتكاك المتواصل بين تلك القبائل، وعندما اشتبكت تلك اللهجات في صراع لغوي؛ كان النصر فيه للغة مشتركة استمدت أبرز خصائصها من لهجة قريش؛ تلك اللهجة التي تفوقت على سائر اللهجات الأخرى، فأصبحت لغة الأدب؛ بشعره ونثره، ولغة الدين، ولغة السياسة والاقتصاد" (محمد صبحي السويركي، 2005، ص 136)

ومن سنن الله في خلقه أن غلبة العصبية تأتي معها غلبة في كل مناحي الحياة والحضارة، وأقوى مظاهر هذه السيادة سيادة اللغة. وإنما كانت لغة قريش هي اللغة الغالبة لعدة أسباب منها:

أ- أن قبيلة قريش هي القبيلة التي قامت بخدمة البيت الحرام، والعناية به، واستضافة الحجاج وسقايتهم، وتعليمهم مناسكهم، وقد كان العرب من مختلف القبائل يحجون إلى بيت الله الحرام، ويتحدثون بلغاتهم المختلفة، وكانت قريش تستمع إلى هذه اللغات، فتختار منها أحسنها وأصفها، وتترك منها ما تراه مخلاً بالفصاحة، نقل عن الفراء قوله: "كانت العرب تحضر الموسم في كل عام، وتحج البيت في الجاهلية، وقريش يسمعون لغات جميع العرب، فما استحسنوه من لغاتهم تكلموا به، فصاروا أفصح العرب، وخلت لغتهم من مستبشع اللغات، ومستقبح الألفاظ" (السيوطي، 1989م، ص ص 414-415).

ب- صفاء لغة قريش وخلوها من مستبشع اللغات، فقد خلت من تلك الخصائص اللهجية كالشكشة، والكسكسة، والعننة، والفحفة، والوكم، والوهم، والعجعة، والاستنطاء، والوتن، والشنشة (انظر: ابن جني، ج 2، ص 12 وما بعدها، والسيوطي، الاقتراح، ص 415 وما بعدها). فهذه هي الخصائص اللهجية التي عُرفت عند بعض القبائل، وقد خلت منها لغة قريش.

وقال أحمد بن فارس: (حدثنا إسماعيل بن أبي عبد الله قال: أجمع علماؤنا بكلام العرب، والرواة لأشعارهم، والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومحالهم أن قريشاً أفصح العرب ألسنة، وأصفاهم لغةً) (ابن فارس، 1997م، ص 28).

كما أثبت ابن خلدون أن لغة قريش كانت: "أفصح اللغات العربيّة وأصرحها لبعدهم عن بلاد العجم من جميع جهاتها" (ابن خلدون، 1981، 765/1)، فالعامل الجغرافي نأى بها عن اختلاط لسانها بما يفسده، إذ نشأت بواد غير ذي زرع، فلم تفقد ما تفقده اللغات، عادةً، من طبائع لغاتها بالاختلاط مع الأقوام الأخرى.

ج-ارتباطها بخاتمة الرسائل السماوية، بلغة القرآن، الكتاب الذي أنزل على خاتم النبيين ﷺ، ولأنه ما من رسول إلا وبعث بلغة قومه قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: 4]. وكما جاء في الحديث: "إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى هَاشِمًا مِنْ قُرَيْشٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ" (أخرجه الترمذي (3606)).

3. القرآن لسان عربي أم قرشي

1.3 جدلية الأصل القرآني

اعتمد في دراسة لغة قريش على ضبط مصادرها الأربعة: القرآن الكريم والحديث النبوي وشعر قريش ونثرها. ويعد المصدر القرآني أقوى المصادر لصحة الأحاديث والآثار الدالة على نزول القرآن بلغة قريش، لسان قوم النبي ﷺ، فلا مسوغ لنزوله عليهم بغير لسانهم وتكليفهم العنت بترويض ألسنتهم على ما لم يألّفوا نطقه. أجمعت الآثار والأخبار على أن القرآن نزل بلغة قريش، قال رسول ﷺ: «نزل القرآن بأعرب اللغات، فلكل العرب فيه لغة ولبني سعد بن بكر سبع لغات» (ابن عبد ربه القرطبي، 1404هـ، 5/5). وبنو سعد قبيلة هوازنية قيسية مضرية عدنانية، تقع باديتها قرب الطائف، وقد استرضع فيها النبي ﷺ كما استرضعت فيها قريش أبناءها، مما يجعلنا لا نستبعد أن تكون أحد أهم رواقد اللسان القرشي. لكن الحديث أيضا ينصف العربية بلهجتها جميعها، ويؤكد على سمة الانتقاء والاصطفاء التي ميزت لغة القرآن لتجعلها لسان القوم الذين نزلت إليهم، لسانا عربيا مبينا، ضم طائفة من لهجات العرب، ووصفه بالعربي المبين يعني أنه مبين لكل العرب. فما موقع لسان قريش؟

انقسم أهل الاختصاص في هذه المسألة إلى قسمين: قسم يرى حجية الآثار الواردة حرفيا حول نزول القرآن بلسان قريش، وقسم يرى أنها تقصد الغالب لا التفرد والحصر، ولهم في ذلك دليلان معتبران: أحدهما أن قريشا لا تهمز في لغتها بينما الهمز وارد في القراءات القرآنية، والآخر أن القرآن تضمن لغات أخرى ليست من لسان قريش. لقد سادت في القرآن لهجة قريش، سيادة دلت عليها آثار أخرى منقولة عن الصحابة وغيرهم. فقد جاء أن عمر كتب إلى ابن مسعود " أن القرآن نزل بلسان قريش، فأقرئ الناس بلغة قريش لا بلغة هذيل" (ابن حجر العسقلاني، 1407هـ / 1986م، 625/8)، وجاء في شرح مشكل الآثار: "الرسول إنما تبعث بألسن قومها، لا بألسن سواها، وعقلنا بذلك أن اللسان الذي بعث به النبي ﷺ هو لسان قومه، وهم قريش، لا ما سواه من الألسن العربية وغيرها، وكان قومه ﷺ المرادون بذلك هم قريش، لا من سواهم" (الطحاوي، 1994، 115/8). وقال أبو حاتم: أحب الألفاظ واللغات إلينا أن نقرأ بها لغات قريش، ثم أدناهم من بطون مضر... لقرب جوارهم من مولد النبي ﷺ ومنزل الوحي، وإنما ربعة ومُضر أخوان" (الزركشي، 1957، 285/1).

لكننا لا يجب أن نغفل أن القراءة التي قرأ بها ابن مسعود تلقاها عن النبي ﷺ عن جبريل عليه السلام عن رب العزة، وخطاب عمر رضي الله عنه لا ينفى في سياقه نزول القرآن بلغة أوسع من لغة قريش.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: " لا يملين في مصاحفنا إلا غلمان قريش وثقيف" (المصاحف، 2002، 174/1). وجاء عن عثمان في جمع القرآن: (إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان

قريش فإنما نزل بلسانهم) (صحيح البخاري، 1433 هـ - 2012م، 531/6)، وجاء عن ابن عباس في تفسير قوله تعالى: بلسان عربي مبين، قال: بلسان قريش. (ابن حسنون، 1946، ص 19)

قال ابن عبد البر: "وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا مِنْ عُمَرَ عَلَى سَبِيلِ الْإِخْتِيَارِ لَا أَنَّ مَا قَرَأَ بِهِ ابْنُ مَسْعُودٍ لَا يَجُوزُ وَإِذَا أُبِيحَ لَنَا قِرَاءَتُهُ عَلَى كُلِّ مَا أُنْزِلَ فَجَائِزُ الْإِخْتِيَارِ فِيمَا أُنْزِلَ عِنْدِي وَاللَّهُ أَعْلَمُ" (التمهيد، 1387هـ، 279/8) وفي الترمذي: "قال الزهري فاختلفوا يومئذ في التابوت والتابوه فقال القرشيون التابوت وقال زيد التابوه فرُفِعَ اختلافهم إلى عثمان فقال اكتبوه التابوت فإنه نزل بلسان قريش" (الترمذي، 1975، 284/5، حديث رقم: 3029). فعثمان أيضا كان أمام وضعية اختيار، فاختار لسان قريش.

وتجدر الإشارة إلى أن كتبة المصحف الذين خاطبهم عثمان رضي الله عنه كانوا بين مهاجرين وأنصار، "أخرج ابن أبي داود من طريق محمد بن سيرين عن كثير بن أفلح. قال: لما أراد عثمان أن يكتب المصاحف جمع له اثني عشر رجلا من قريش والأنصار" (السيوطي، الإتيان، 1974، 209/1)، كما ذكر الداني: "الذين وُلّوا نسخ المصاحف زمن عثمان رحمه الله، وهم قريش، وعلى لغتهم أقرت الكتابة حين وقع الخلاف بينهم وبين الأنصار" (الداني، المحكم، 1407هـ، ص 151)، وهو ما يثبت على الأقل أن السجل الذي قام بين الطرفين كان سجلا بين لغة الأنصار اليمنيين القحطانية ولغة قريش لسان القبائل العدنانية.

وقال القاضي أبو بكر الباقلاني: معنى قول عثمان "نزل القرآن بلسان قريش" أي معظمه، وأنه لم تقم دلالة قاطعة على أن جميعه بلسان قريش، فإن ظاهر قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: 3] أنه نزل بجميع ألسنة العرب" (ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، 1390هـ، 9/9). ولعل الراجح أنه نزل بلسان قريش ثم نزل ببقية الأحرف السبعة تيسيرا وتسهيلا.

فالقول بتنزل القرآن الكريم بلغة قريش؛ يعني على الأغلب ولا يعني انطباق لغة قريش على لغة القرآن انطباقاً كاملاً، يؤكد هذا الأمر ما ذكره ابن عبد البر في "التمهيد": (قول من قال: نزل القرآن بلغة قريش، معناه عندي: "في الأغلب"؛ لأن لغة غير قريش موجودة في جميع القرآن، من تحقيق الهمز ونحوه، وقريش لا تهمز) (التمهيد، 1387هـ، 280/8)

وقد شهدت الآثار المختلفة على اعتماد قراءات قراء الحجاز حين يطرأ الخلاف في قضية لغوية ما، كما حدث في "التابوه" و"التابوت". عن أنس بن مالك قال: (فأمر عثمان زيد بن ثابت وسعيد بن العاص وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام أن ينسخوها في المصاحف وقال لهم إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في عربية من عربية القرآن فاكتبوها بلسان قريش فإن القرآن أنزل بلسانهم ففعلوا) (البخاري، 182/6، حديث رقم: 4984)

فقوله "إذا اختلفتم في عربية من عربية القرآن" يعني أن القرآن يضم أكثر من لهجة، واختياره للغة قريش هو اختيار الغالب وترجيح الأظهر والأعرف، كما قال الباقلاني: "ولكنه اختيار منهم لملازمة لغة قريش، لأنها هي الأظهر المعروفة. والناس لها ألف، والألسن بها أجرى، والقلوب لها أوعى، وليس يمنع ذلك من أن يُنزل الله سبحانه بخلاف الوجه الأظهر، كما أنزل على الوجه الأظهر المعروف" (الباقلاني، الانتصار للقرآن، 2001، 553/2)

واختيار لغة دون أخرى لا يعني رد غيرها أو استهجانها، جل ما هنالك "أن يتخير ما هو أقوى وأشيع" منها، إلا أن إنساناً لو استعملها لم يكن مخطئاً لكلام العرب، لكنه كان يكون مخطئاً لأجود اللغتين" (ابن جني، دت، 14/2). ولعل هذا ما قصده عمر في رسالته لابن مسعود رضي الله عنهما.

2.3 قضية الهمز في اللسان القرشي

مما سبق فإن القرآن نزل بلسان قریش، وكانوا لا يهمزون في كلامهم، وكان النبي ﷺ لا يهمز، كما يفعل قومه، وكان اختيار عمر وعثمان يغلب لغة قریش، فكيف انتشر الهمز في اللغة الفصحى؟

تكاد تكون ظاهرة الهمز في العربية أهم قضية جعلت اللغويين يترددون في قبول الفكرة القائلة بأن القرآن نزل بلغة قریش، وأن لغة قریش أصل العربية الفصحى. ولكننا إذا تتبعنا رسم المصحف كما جاء في المصاحف القديمة باعتبارها وثيقة تاريخية هامة في تاريخ العربية، لوجدنا أن المصاحف القديمة التي كتبها الصحابة قد كتبت على تسهيل الهمزة كما كان جارياً على ألسنة الناس في الحجاز، وهو الذي غلب على قراءة قُرَاء مدن الحجاز الأوائل، قال أبو زيد الأنصاري (ت215هـ): أهل الحجاز وأهل مكة والمدينة لا ينبرون (ابن منظور، 2003، 28/1). يعني: لا يهمزون.

ومما يؤكد أن قضية الهمز لا تتعارض مع قضية نزول القرآن بلغة قریش ثلاث نقاط:

- طريقة كتابة الهمزة في المصاحف القديمة، جاء في كتب رسم المصحف أن الهمزة المتوسطة قد رُسِمَتْ في المصاحف القديمة ياءً أو واواً أو ألفاً، بحسب ما تؤول إليه في التخفيف، وتقدم لنا هذه الأمثلة: الذيب، وبير، وسيلت، والخطاية، وينبيك، وسنقریک وغيرها. ويوفكون، والمومنون والموتون، والفواد وسؤال، ويولف، وأبناوكم، وغيرها. إن هذه الكلمات تبين أن الذين تولوا نسخ المصاحف كانوا لا يحققون الهمزة، وإنما يكتبون حرف العلة الذي يخلفها في نطق الكلمة.

قال أبو عمرو الداني (ت444هـ): "والهمزة قد تصور على المذهبين من التحقيق والتسهيل، دلالة على فشوهما واستعمالهما فيها، إلا أن أكثر الرسم ورد على التخفيف، والسبب في ذلك كونه لغة الذين وُلوا نسخ المصاحف زمن عثمان وهم قریش ... فلذلك ورد أكثر الهمز على التسهيل، إذ هو المستقر في طباعهم الجاري على ألسنتهم" (انظر: أبو عمر الداني، المحكم، 1407هـ، ص151)

- فشو التحقيق فيما بعد سببه تحول مذهب القراء في مكة والمدينة من التسهيل إلى التحقيق (انظر: د. غانم قدوري الحمد، 1415هـ، ص ص 39، 40)، قال ابن الجزري (ت833هـ): ولما كان الهمز أثقل الحروف نطقاً، وأبعد مخرجاً. تنوع العرب في تخفيفه بأنواع التخفيف، كالنقل والبدل وتَيْنٌ وإِدْغَام، وغير ذلك وكانت قریش وأهل الحجاز أكثرهم له تخفيفاً، ولذلك أكثر ما يرد تخفيفه من طرفهم، كابن كثير من رواية ابن فليح، وكنافع من رواية ورش وغيره، وكأبي جعفر من أكثر رواياته (ابن الجزري، د.ت، 446/1). لكن كتب القراءات تحدثت عن ظاهرة الاختيار التي أدت إلى فشو الهمز بين قراء المدينة ومكة؛ إذ جاء في خبر رواه ابن مجاهد عن قالون تلميذ نافع: "كان أهل المدينة لا يهمزون حتى همز ابن جندب" يقصد مسلم بن جندب الهذلي أحد شيوخ نافع الخمسة المشهورين (كتاب السبعة، ص 60. وانظر: ابن الجزري، غاية النهاية، 297/2). ونقل أبو بكر الأنباري عن خلف بن هشام أنه قال: "وقریش لا تهمز، ليس الهمز من لغتها، إنما همزت القراء بلغة غير قریش من العرب" (ابن الأنباري، إيضاح الوقف والابتداء، 1971 392/1). وفي هذا إشارة إلى أن اختيارات القراء أدت إلى شيوع الهمز في الحجاز وقراء الحجاز هم نافع وابن كثير وأبو جعفر: اثنان منهم قرشيان بالولاء، وابن كثير كناني بالولاء، لكنه مكي النشأة والدار. وجل طرقهم في القراءة تنتهي إلى قرشيين: ابن عباس وأبي هريرة والزبير بن العوام وابن عمر (انظر: ابن مجاهد، 1400هـ، 53/1)

-اهتمام اللغويين في البصرة والكوفة بالكتابة في الهمز في القرن الثاني للهجرة بسبب نزول عرب قيس وتميم وأسد بالعراق، وكانوا من أشهر من يحقق الهمزة، فشاع ذلك في لغة العلم والخطابة، فألف عدد من علماء البصرة

كتبنا في الهمز باعتباره ظاهرة تعبر عن درجة عالية في الفصحاة، كقطرب (ت 206هـ) وعبد الملك الأصمعي (ت 217هـ) وأبو زيد الأنصاري (ت 215هـ). وأدى ذلك إلى انتشارها تدريجياً في الحجاز، وصارت من مميزات اللغة الفصحى. (د. غانم قدوري الحمد، 1415هـ، ص ص 41 ما بعدها)

وبالتالي من خلال ما سبق أمكن الرد على دعوى أن القرآن لم ينزل بلغة قريش لأن قريشا لا تهمز.

4- لغة قريش وثورة النحويين

لما جاء الإسلام نزل القرآن بلسان عربي مبين، على العرب، قوم النبي ﷺ بتلك اللغة المشتركة التي كانت قد نمت وازدهرت قبل نزوله. لكنها على ذلاقها في اللسان وغزارة البيان، حين تحداهم أن يأتوا بمثلها لم يفعلوا ولن يفعلوا.

وكأن العربية صارت لغتين: لغة إلهية معجزة، ولغة بشرية لها نفس الألفاظ ونفس التراكيب. مما جعل اللغويين والنحاة ينطلقون من الثانية لفهم الأولى، يبحثون في لغة العرب استنباطاً واستقراءً وقياساً لحماية لغة القرآن من أن يطالها اللحن والتحريف.

لا يختلف اثنان على أن شيوع اللحن في ألسنة المتكلمين باللغة العربية كان سبباً في نشأة الدرس النحوي بعد أن كثرت اختلاط العرب بغير العرب وبالعرب اختلطوا بأعاجم. فقد ثار النحاة للذود عن لغة القرآن دفاعاً عن القرآن نفسه، الكتاب الذي رفعهم وانتشلهم من حضيض الهوان إلى قمة العز سبقت بهم الأمم، وإلى وعد بالتمكين والخيرية لا بد أن يحفظوه.

هي هبة لصناعة العربية خشية أن ينغلق القرآن والحديث على الفهم. يقول ابن خلدون: "إن اللغة هي ملكة في ألسنتهم يأخذها الآخر عن الأول كما تأخذ صبياننا لهذا العهد لغتنا، فلما جاء الإسلام وفارقوا الحجاز لطلب الملك الذي كان في أيدي الأمم والدول وخالطوا العجم، تغيرت تلك الملكة بما ألقى إليها السمع من المخالفات التي للمستعربين، والسمع أبو الملكات، وخشي أهل العلوم منهم أن تفسد تلك الملكة رأساً، ويطول العهد بها، فينغلق القرآن والحديث على المفهوم، فاستنبطوا من مجاري كلامهم قوانين لتلك الملكة". (ابن خلدون، 1981، 754/1) وفيما يلي ننتقل إلى مناقشة الأصل السماعي باستقراء المصطلح (لغة قريش) لدى أهم مدرستين في النحو العربي، لنعرف حظ لغة قريش في قياسات البصريين والكوفيين.

4-1- مصطلح لغة قريش عند البصريين

نحاة البصرة هم أهل النحو العربي، وأصحاب الصنعة فيه، فقد استأثروا به زمناً طويلاً، فأصلوا أصوله وفرعوا فروعه ووضعوا له أقيسته وعلله قبل غيرهم. وكانت لهم مواقف من لغات القبائل يعتد بها لدى القدماء والمحدثين إلى وقتنا هذا.

وقد أثر عنهم اعتدادهم بالسماع ممن توثق عربيتهم، فلا يبنون قواعدهم إلا على الأكثر الشائع من كلام العرب، ولا يستدلون إلا بلغة البدو من القبائل الست التي اعتمدها؛ كتميم وأسد وكنانة، ولا يستدلون بلغة أهل الحضر كمكة والطائف والمدينة (د. فؤاد رمضان حمادة، 2015، ص 10). وكل مسموع خالف أصلاً من أصولهم تأولوه أو عدوه لغة أو رموه بالشذوذ.

نقل المبرد عن الخليل بن أحمد يقول: أفصح الناس أزد السراة (الجوهري، 1987، 440/2). وأضاف عن الأصمعي قال: سمعت أبا عمرو بن العلاء يقول: أفصح الناس سافلة قريش وعالية تميم، قال: وكنا نسمع أصحابنا يقولون: أفصح الناس تميم وقيس وأزد السراة وبنو عذرة. (المبرد، الفاضل، 1421هـ، ص 113)

والأزد منهم أزد غسان الذين منهم خزاعة الذين استوطنوا مكة، والأوس والخزرج الذين استوطنوا يثرب. (ابن السائب، 1986، ص 615)

وترد في كتب النحو أسماء قبائل تؤخذ عنهم عربية التقعيد والقياس، أشهرها: أسد، تميم، قيس، وهذيل وبعض كنانة وطيء. وقد اعتمد حصر هذه القائمة على المكان الذي تعيش فيه هذه القبائل وعزلته عن عوامل الاختلاط. لكن الخليل لم يقل ولم يحدد مكانا لأخذ اللغة ولم يرو عنه أنه وضع معايير مكانية تحدد القبائل التي يؤخذ بلغتها. فقد كان يتكلم العربية سليقة وقد قامت علمها في عقله وصنفها بأسلوبه، بعد أن طاف الجزيرة العربية يستمع ويروي ويستنبط ويدون.

فالقبائل المذكورة هم الذين عنهم نُقلت اللغة العربية، وعندهم أخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب، والذي يجمع من بين هذه القبائل هو توغلها في البداوة، وبعدها عن الاختلاط بغيرها من الأمم وبالأعاجم، كما يجمع بينها قريشاً من قريش: لأن قريشاً -كما علمنا- أفصح العرب، وأجودهم انتقاء للأفصح من الألفاظ.

وهذا ما ذهب إليه ابن خلدون؛ أي أن مقياس الفصاحة هو القرب أو البعد من قريش، فقال في مقدمته: "كانت لغة قريش أفصح اللغات العربية وأصلحها؛ لبعدها عن بلاد العجم من جميع جهاتهم، ثم من اكتنفهم من (ثقيف، وهذيل، وخزاعة، وبني كنانة، وغطفان، وبني سعد، وبني تميم)، وأما من بُعد عنهم من ربيعة، ولخم، وجذامة، وغسان، وإياد، وقضاعة، وعرب اليمن المجاورين للأمم الفرس والروم والحبشة، فلم تكن لغتهم تامة الملكة بمخالطة الأعاجم، أي: بسبب مخالطة الأعاجم، وعلى نسبة بعدهم من قريش كان الاحتجاج بلغاتهم في الصحة والفساد عند أهل الصناعة العربية" (ابن خلدون، 1981، 765/1)

وقد اعتمد القدماء في جمع اللغة على منهج علمي دقيق، يعول على الحيطة في الملاحظة والاستقراء، حتى يطمئنوا إلى ما استنتجوه من خصائص العربية التي تجنبوا أخذها عن تشوب عربيتهم أية شائبة؛ فقد اقتصر أخذهم اللغة على عرب البادية، وعلى فصحاءهم بشكل خاص. وكثيراً ما كان سيبويه يشير إلى تشدده في تصويب الاستعمال اللغوي برده إلى العرب الذين تُرضى عربيتهم (سيبويه، 1998، 182/1، 533/3، 138/4، 471)، أو العرب الموثوق بهم (سيبويه، 1998، 9/2، 329/2، 336، 345، 186/4)، أو بعربيتهم (سيبويه، 1998، 124/1، 20/2، 128/4)، ولكن سيبويه نفسه كان يرى أن هؤلاء العرب الموثوق بعربيتهم هم عرب الحجاز، فيجئ غالباً إلى ترجيح لغتهم إذا اختلفت اللهجات، بقوله "وهو الأصل" أو "ردته إلى أصله على لغة الحجاز"، أو "والحجازية هي اللغة الأولى القدي". (سيبويه، 1998، 111/4، 278/3، 533)

وكان النحاة يبنون القاعدة على النطق الغالب عند العرب للظاهرة، مع ترجيح لغة أهل الحجاز، فإن تساوت في الشيع عرضت على الجماعة التي تستعمل كل ظاهرة. وهذا المنهج وضعه أبو عمرو بن العلاء (ت 154هـ) شيخ الخليل. وقد سئل: كيف تصنع فيما خالفك فيه العرب وهم حجة؟ قال: أعمل على الأكثر، وأسمي ما خالفني لغات. (السيوطي، المزهر، 1998، 184/1)

وقد وردت نصوص في التراث العربي حول ظواهر لغوية متفرقة مرتبطة بلسان قريش، تؤيد النصوص التاريخية التي مرت، وهذه أمثلة من تلك الظواهر.

- قال سيبويه وهو يتحدث عن لغة بني تميم وأهل الحجاز في (ما) النافية: وأما بنو تميم فيُجْزَوْنَهَا مجرى أما وهل، أي لا يُعْمَلُونَهَا في شيء وهو القياس ... وأما أهل الحجاز فيُشْهِنُونَهَا بليس إذ كان معناها كمعناها ... ومثل ذلك قوله عز وجل: ﴿ مَا هَذَا بَشَرًا ﴾ [يوسف: 31] في لغة أهل الحجاز، وبنو تميم يرفعونها إلا مَنْ عرف كيف هي في المصحف. (سيبويه، 1988، 59/1).

- وقال الفراء وهو يعلق على قوله تعالى: ﴿مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَلَتَيْنِ﴾ [الصافات: 162]: "وأهل نجد يقولون: بمفتنين، أهل الحجاز فتنت الرجل، وأهل نجد يقولون: أفتنته". (الفراء، د.ت، 394/2)

- وقال الأخفش وهو يتحدث عن قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَا تَوَجَّلْ﴾ [الحجر: 53] وأما بنو تميم فيقولون: (تيجل)... (الأخفش الأوسط، 1990، 412/2)

- وقال أيضاً وهو يتحدث عن قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَىٰ النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ [النحل: 68]: "على التأنيث في لغة أهل الحجاز، وغيرهم يقول: هو النحل". (الأخفش الأوسط، 1990، 417/2)

تشير النصوص التي أوردناها إلى موافقة لغة أهل الحجاز للنص القرآني الكريم، وقلب الحجاز مكة، وأهل مكة هم قريش.

2-4- مصطلح لغة قريش عند الكوفيين

أما الكوفيون فقد عرف عنهم التوسع في السماع، بحيث إذا عرض لهم شاهد جَوَز شيئاً خالف أصولهم جعلوه أصلاً وبوبوا له دون غضاضة وإن كان شاذاً، وهي طريقة ابتدعها الكسائي مؤسس مذهبه، حتى قال عنه ابن درستويه أنه أفسد النحو. (السيوطي، بغية الوعاة، د.ت، 164/2) وأحسبه كان مغالياً في ذلك، كيف لا، وهو الذي قال فيه الفراء حين ناظره: "فكأنني كنت طائراً يغرف بمنقاره من البحر" (السيوطي، بغية الوعاة، د.ت، 164/2).

اختلفت دلالة المصطلح عند الكوفيين بين اعتبارها لغة الحجاز وبين اعتبارها لغة قريش أهل مكة، في مواضع عدة:

- تسهيل الهمزة ونسبتها إلى قريش، قال الفراء: "قوله تعالى: ﴿تَأْكُلُ مِنْسَاتِهِ﴾ [سبأ: 14] همزها عاصم والأعمش ... ولم يهمزها أهل الحجاز، ولا الحسن. ولعلمهم أرادوا لغة قريش فإنهم يتركون الهمز" (الفراء، معاني القرآن، د.ت، 356/2). وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَكْفُرْ بِكُمْ﴾ [الأنبياء: 42] "ومن قال: يكلاكُم قال: كليت مثل قضيت. وهي من لغة قريش، وكلُّ حسن" (الفراء، معاني القرآن، د.ت، 204/2).

- فتح حرف المضارعة: اعتبر الفراء هذه الظاهرة قرشية، حيث روى عنه السيوطي: نَسْتَعِين ونَسْتَعِين، بفتح النون وكسرها، قال: هي مفتوحة في لغة قريش وأسد". (السيوطي، المزهر، 1998، 202/1)

- اعتبار زيادة اللام في اسمي الإشارة ذلك وتلك من لغة قريش، وتميم تقول ذاك وتيك الوقعة. (الفراء، 109/2)

- تصريف بعض الألفاظ: كقوله: ﴿أَيْمَسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: 59] الهُون في لغة قريش: الهوان. (الفراء، د.ت، 106/2). وفي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ [التوبة: 79]. والجُهد لغة أهل الحجاز والوُجد، ولغة غيرهم الجُهد والوُجد (الفراء، د.ت، 447/1). أو قوله: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ [النساء: 4] حجازية. وتميم: صُدَقَات، واحداً صُدَقَة. قال الفراء: وأهل الحجاز يقولون: أعطها صَدَقَتها. (الفراء، د.ت، 59/2)

من خلال دراستنا لمواقف المدرستين تجاه الاحتجاج بلغة قريش وحظها منه، ينبغي التنبيه إلى أن أحكام النحويين في الاحتجاج عموماً إنما تكون متعلقة بظواهر لغوية معينة في التصريف وغريب الألفاظ والتراكيب. ذلك أنه لا يمكن أن نحصي كل تطابق بين لغة قريش والنص القرآني وأصول النحو العربي.

لكن بقي أن ننوه إلى مسألة اصطلاحية ذات بال، وهو الترادف المحتمل بين قولنا لغة قريش ولغة الحجاز أو الحجازية؛ فقد أشارت كتب التراث إلى دلالة كل منهما على الأخرى تارة أول حمل الكل على الجزء والعكس: من ذلك أن ثعلبا نسب (الهدي) بالتخفيف إلى أهل الحجاز وبالتشديد إلى تميم، وقال أبو حيان: إن التخفيف لغة قريش (أبو حيان الأندلسي، 2000، 60/2، 98/8). وجاء عند ابن حسنون: (زادته هذه إيماننا) بالكسر بلغة تميم، وبالفصح بلغة قريش، يعني الحجاز". (ابن حسنون، 1946، ص 28)

4. خاتمة

نخلص في نهاية هذه الورقة البحثية إلى النتائج الآتية:

- إن لغة قريش لهجة عربية تطورت عن اللغة العربية الأم بفعل عوامل جغرافية ودينية واقتصادية واجتماعية تضافرت لتتصنع منها لغة مشتركة تواضعت عليها بقية القبائل التي تملك لهجة مستقلة.

- اتسمت لغة قريش بظواهر لغوية وكتابية تم توثيقها وتناقلها بفضل اعتمادها كمرجع خلافي في كتابة المصحف.

- سادت لغة قريش شقيقاتها من لهجات القبائل العربية لاعتمادها اللسان الذي خاطب به النبي ﷺ قومه بالقرآن ورسالة الإسلام.

- نزل القرآن بلسان قريش في معظمه، إلا أنه كون لغة تضم بعضا من اللهجات العربية المعروفة آنذاك، حافظ عليها لتصير هي العربية الفصحى المعتمدة إلى يومنا هذا.

- رغم تصنيف نحاة البصرة للغة قريش كلغة حضر إلا أنهم اعتمدها في كثير من السماع ورجحوها في قياساتهم تحت اصطلاح لغة أهل الحجاز، لكنهم لم يقصدوا بها لغة قريش حصرا. فهم كانوا متحفظين في اعتماد لغة قريش مصدرا للاحتجاج، لأنه لم يشملها الشرط الجغرافي والزمني الذي وضعوه.

- اعتمد نحاة الكوفة مصطلح لغة قريش وكانوا يقصدون به لغة أهل الحجاز أيضا. وتوسعوا في اعتمادها حجة سماعية، كما توسعوا في لغات كثيرة.

- أثبتنا من خلال دراسة ظاهرة الهمز التي اعتبرت حجة اللغويين الذين رفضوا اعتبار القرآن بلسان قريش لأن قريشا لا تهمز، أن المصاحف القديمة كتبت بالتسهيل وأن الصحابة والنبي قرأوا بالتسهيل، وأن الهمز انتشر فيما بعد بين اللغويين لعوامل الزواج واختيارات القراء، أدت إلى تحول مذهب القراء في مكة والمدينة من التسهيل إلى التحقيق.

- إن اللهجات الواردة في النص القرآني، والتي زاحمت لسان قريش فيه، إنما هي من المشترك بين لغة قريش ولغة تلك القبائل؛ لأن لغات العرب ما هي في الواقع إلا لهجات متفرعة عن أصل واحد.

والحمد لله على تمام نعمه وكمال فضله.

5. قائمة المراجع:

- ابن الجزري أبو الخير محمد بن محمد الدمشقي (د.ت)، *النشر في القراءات العشر*، مصر، المطبعة التجارية الكبرى.
- ابن الجزري أبو الخير محمد بن محمد الدمشقي (2017)، *غاية النهاية في طبقات القراء*، تح: عمرو عبد الله، ط1، مصر، دار اللؤلؤة للنشر.
- ابن جني أبو الفتح عثمان بن جني (د.ت)، *الخصائص*، تح: محمد علي النجار، ط4، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- ابن خلدون، (1981)، *تاريخ ابن خلدون*، مراجعة: د. سهيل زكاروأ. خليل شحادة، ط1، بيروت، دار الفكر.
- ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع الهاشمي البصري (1410 هـ - 1990 م)، *الطبقات الكبرى*، تح: محمد عبد القادر عطا، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية.
- ابن عبد البر، أبو عمرو يوسف بن عبد الله النمري القرطبي (1387 هـ)، *التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد*، تح: مصطفى بن أحمد العلوي، محمد عبد الكبير البكري، المغرب، وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية.
- ابن قيم الجوزية، شمس الدين أبو عبد الله، محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي، (1996 م)، *زاد المعاد في هدي خير العباد*، تح: شعيب وعبد القادر الأرناؤوط، ط1، بيروت، لبنان، مؤسسة الرسالة.
- أبو حيان الأندلسي محمد بن يوسف، (2000 م)، *البحر المحيط*، تح: صدقي العطار وزهير جعيد، بيروت، دار الفكر.
- الأخفش الأوسط، أبو الحسن، (1990)، *معاني القرآن*، تح: هدى محمود قراعة، ط1، القاهرة، مكتبة الخانجي.
- أنيس، إبراهيم، (2002 م)، *في اللهجات العربية*، القاهرة، مكتبة الأنجلو مصرية.
- الباقلائي، محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم، القاضي أبو بكر المالكي (1422 هـ - 2001 م)، *الانتصار للقرآن*، تح: د. محمد عصام القضاة، ط1، بيروت، دار الفتح - عمان، دار ابن حزم.
- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي (1433 هـ - 2012 م)، *صحيح البخاري*، ط1، القاهرة، دار التأصيل.
- الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك، (1975)، *سنن الترمذي*، تح: أحمد شاکر، محمد فؤاد عبد الباقي، إبراهيم عوض، ط2، مصر، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي.
- ثعلب، أبو العباس أحمد بن يحيى بن زيد بن سيار الشيباني بالولاء، (1950)، *مجالس ثعلب*، مصر، دار المعارف.
- الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد الفارابي، (1987)، *الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية*، تح: أحمد عبد الغفور عطار، ط4، بيروت، دار العلم للملايين.
- الداني، عثمان بن سعيد بن عمر أبو عمرو (1407 هـ)، *المحكم في نقط المصاحف*، تح: عزة حسن، ط2، دمشق، دار الفكر.
- الزبيري، أبو عبد الله المصعب بن عبد الله بن المصعب (د.ت)، *نسب قريش*، تصحيح وتعليق: إ. ليفي بروفنسال، القاهرة، دار المعارف.
- السويركي، محمد صبحي، (2005) *من أسرار البناء الداخلي في القرآن الكريم*، ط1، الشاملة الذهبية.
- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين (1989 م)، *الاقتراح في أصول النحو وجدله*، تح: محمود فجال، ط1، دمشق، دار القلم.

- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين (د.ت)، *بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة*، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، لبنان، المكتبة العصرية.

- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين (1998م)، *المزهر في علوم اللغة*، تح: فؤاد علي منصور، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية.

- الفراء، أبو زكرياء يحيى بن زياد الديلمي (د.ت)، *معاني القرآن*، تح: يوسف النجاتي ومحمد علي النجار، ط1، دار المصرية للتأليف والترجمة.

المقالات:

- قدوري الحمد، غانم، (1415هـ) *تكون العربية الفصحى*، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني - العدد 48، (11-92)

- حمادة، فؤاد رمضان، (2015) *مواقف النحاة واللغويين من لغة قريش*، دراسة في دلالات المصطلح وحدوده، مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات - العدد 36. (110-144)